

السيرة - فقه السيرة النبوية - الدرس (٥٧-٠٣) : البيئة التي عاشها النبي صلى الله عليه وسلم قبل نزول الوحي عليه

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ٢٠٠٥-٠٥-١٦

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلوة والسلام على سيدنا محمد الصادق الوعود الأمين، اللهم لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم، اللهم علمنا ما ينفعنا، وانفعنا بما علمتنا، وزدنا علماً، وأرنا الحق حقاً، وارزقنا اتباعه، وأرنا الباطل باطلًا، وارزقنا اجتنابه، واجعلنا من يسمعون القول فيتبعون أحسنه، وأدخلنا برحمتك في عبادك الصالحين، أخرجنا من ظلمات الجهل والوهم إلى أنوار المعرفة والعلم، ومن حول الشهوات إلى جنات القربات .

ما هي الحكمة الربانية في اختيار مكة المكرمة بدلاً للرسول؟

أيها الأخوة الكرام، مع الدرس الثالث من دروس فقه السيرة النبوية، موضوع هذا الدرس البيئة التي عاشها النبي صلى الله عليه وسلم قبل نزول الوحي عليه، وهذا يسمى في الدراسات التاريخية بعد التاريخي .

مكة المكرمة أرض ليس فيها زرع،
قال تعالى:

﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ
ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْنِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقيِّمُوا
الصَّلَاةَ﴾

(سورة إبراهيم الآية : ٣٧)

يبدو من هذه الآية الكريمة، وقد اعتمد كتاب السيرة على القرآن الكريم، وما صح من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم مصدراً أولاً وثانياً لوقائع السيرة، أن هناك متع حسية، وهناك سعادة نفسية، لو أن المتع الحسية متوافرة تماماً، ورفقتها سعادة نفسية لاختلط الأمر، لكن هذا اسمه فرز، تذهب إلى بيت الله الحرام في وادٍ غير ذي زرع، والجو حار، ومع ذلك تسعد في جوار هذا البيت أيما سعادة، لأن الله سبحانه وتعالى جمد العامل الجمالي الأرضي، وحرك العامل النفسي السماوي .





في مكة حيث الطبيعة لا تملك عامل جمالي يكون العامل النفسي بأفضل حالاته

إذاً: قد تأتي الدنيا كما ت يريد، فتبتعد عن الغرض الذي خلقت من أجله، هذهحقيقة، الدنيا أحياناً تكون حجاباً بين العبد وبين ربه، ولا أغفلكم أيها الأخوة أن بلاداً كثيرة تعاني من رخاء ما بعده رخاء، ومن جمال ما بعده جمال، ومن متع حسية ما بعدها متع، هذه الدنيا العريضة، وهذا الجمال الأخاذ، وهذا التفالت صار حجاباً بين الناس وبين

خالقهم، وقد تجد في بلاد أخرى شدة وضيقاً وفقرأً، وتجد إقبال الناس على الدين منقطع النظير .

هناك علاقة بين المتع الحسية وتوافرها، وبين النشاط الروحي وحدته، حينما قال الله عز وجل:

﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾

(سورة إبراهيم الآية : ٣٧)

إذاً: ربما أعطاك فمنك، وبربما منعك فأعطيك، وقد يكون المنع عين العطاء،
قال تعالى:

﴿وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ﴾

لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ

لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾

(سورة البقرة الآية : ٢١٦)

هذه الدنيا أيها الأخوة ليست بشيء أمام الآخرة، قال رسول الله :

" ما أخذت الدنيا من الآخرة إلا كما أخذ المخيط غرس في البحر من مائه "

(ورد في الأثر)

إذا كنت في بلد لست كما تتنمي، وكنت قريباً من الله عز وجل فأنت الرابح الأكبر، وإذا كنت في بلد وكأنه جنة الأرض، وهذه الجنة في الأرض حجبتك عن الله عز وجل، وأنستك الآخرة فأنت الخاسر فحيث ما أراد الله أن تكون قبل قضاء الله وقدره، عندئذ تكشف حقيقة الحكمة الإلهية، لأن كل شيء وقع أراده الله، وكل شيء أراده الله وقع .



مهما يكن المكان الذي تعيش به جميلاً فانت خاسر إن
كنت محجوباً عن الله

النعم التي اسدها الله على قريش :

أيها الأخوة، الله عز وجل امتن على قريش حيث يقول في كتابه الكريم:
﴿لِيَلَافِ قُرِيشٍ * إِلَيْهِمْ رِحْلَةُ الشَّتَاءِ وَالصَّيفِ * فَلَيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ * الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ﴾

(سورة قريش الآية : ٤-٥)

قال علماء التفسير: إن أعظم نعمة يمتن الله بها على عباده نعمة الشعب والأمن، قال تعالى:
﴿أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ﴾

(سورة قريش الآية : ٤)

﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَنَةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغْدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعَمِ اللَّهِ فَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾

(سورة النحل الآية : ١١٢)



إذاً: حينما تكون كما قال الرسول :
" من أصبح منكم آمنا في سربه،
معافي في جسده، عنده قوت يومه،
فكأنما حيزت له الدنيا "

(أخرجه البخاري عن عبد الله بن محسن) وأعني ((آمنا في سربه))، أي أمن الإيمان، أنت حينما تؤمن تشعر أنك تحت رحمة الله، وتحت رضوان الله، وتحت حفظ الله، وتحت تأييد الله،

وتحت توفيق الله، وتحت نصر الله، وإذا كان الله معك فمن عليك، وإذا كان عليك فمن معك، وهذه معية خاصة، قال عنها العلماء: إنها معية التأييد ، والنصر ، والتوفيق ، والحفظ ، قال تعالى:

﴿وَإِنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ﴾

(سورة الأنفال الآية : ١٩)

﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾

(سورة البقرة الآية : ١٩٤)

﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزُنُوا وَأَتْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾

(سورة آل عمران الآية : ١٣٩)

المزايا التي كانت تتصف فيها بيئه النبي :

أيها الأخوة، في البيئة التي عاش بها النبي كان فيها بعض المكارم الأخلاق، قيمة الشجاعة، وقيمة المروءة، وقيمة الكرم، لذلك قال عليه الصلاة والسلام:

" وإنما بعثت معلماً"

(أخرجه ابن ماجه من حديث عبد الله بن عمرو)

"بعثت لأنتم مكارم الأخلاق"

(أخرجه أحمد والحاكم والبيهقي من حديث أبي هريرة)

"خياركم في الجاهلية خياركم في الإسلام"

(أخرجه البخاري عن أبي هريرة)

وقد خاطب النبي الصحابة فقال:

"أسلمت على ما أسلفت من خير"

(أخرجهما البخاري ومسلم في الصحيح)

معنى ذلك أن القيم التي كانت قبل بعثة النبي كقيمة الشجاعة والكرم والمروءة، وكان عنترة يقول :

وأغض طفني أن بدت لي جارتي حتى
يواري جارتي مأواها

أليست هذه مروءة؟ لذلك قال عليه الصلاة والسلام: "بعثت لأنتم مكارم الأخلاق" من هنا نستبط أن الإنسان الصالح في أخلاقه قبل أن يؤمن، وقبل

أن يهتدى إلى الله عز وجل، لأنه صالح يتولاه الله عز وجل، قال تعالى:

﴿وَهُوَ يَتَوَلَّ الصَّالِحِينَ﴾

(سورة الأعراف الآية : ١٩٦)



يُكَوِّنُ وَحْيَ قَبْلَهُ، وَلَمْ يَكُنْ إِسْلَامُ قَبْلَهُ هَذَا الْإِسْلَامُ، "وَاللَّهُ لَا يُخْرِيكَ اللَّهُ أَبْدًا، إِنَّكَ لِتَكْرُمَ الضَّيْفَ، وَتَحْمِلَ الْكَلَّ، وَتَعْنِي عَلَى نَوَائِبِ الدَّهْرِ"، هَذِهِ الْفَطْرَةُ .

وَأَنَا أَقُولُ لَكُمْ أَيْمَانَ الْأَخْوَةِ، وَهَذَا اسْتِبْطَاطٌ، وَلَا سِيمَا أَنِّي أُوجَهُ إِلَى النَّشَابِ: إِنْ كُنْتَ شَابًا مُؤْمِنًا، مُسْتَقِيمًا، عَفِيفًا، صَادِقًا، أَمِينًا، ثَقُ بِتَوْفِيقِ اللَّهِ أَكَّ، لَأَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَقُولُ:

﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾

(سورة الجاثية الآية : ٢١)

إِذَا: مَكَارِمُ الْأَخْلَاقِ الَّتِي كَانَتْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ اعْتَمَدَهَا إِسْلَامُ وَأَفْرَاهَا .

أهمية النسب في عالم الإيمان :

أَيْمَانَ الْأَخْوَةِ، قَبْيلَةُ قَرِيشٍ كَانَتْ فِي الْجَزِيرَةِ الْعَرَبِيَّةِ وَاسْطَةُ الْعَقْدِ، وَكَانَتْ سِيدَةُ الْعَرَبِ وَقَتْهَا هَذَا يَنْقُلُنَا إِلَى مَوْضِيَّةِ النَّسْبِ، مَا عَلَاقَةُ النَّسْبِ بِالْإِيمَانِ؟ النَّسْبُ تَاجٌ يَتَوَجَّ بِهِ الْمُؤْمِنُ، فَالنَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ حَدَّثَنَا عَنْ سَيِّدِنَا يُوسُفَ، فَقَالَ:

"الْكَرِيمُ ابْنُ الْكَرِيمِ، ابْنُ الْكَرِيمِ، يُوسُفُ بْنُ يَعقوبٍ بْنِ إِسْحَاقِ بْنِ إِبْرَاهِيمَ"

(أَخْرَجَهُ أَحْمَدُ فِي مُسْنَدِهِ)

وَلَكِنْ حِينَما قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ * مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ * سَيَصْلُى نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ * وَامْرَأُهُ حَمَالَةُ الْحَطَبِ * فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِنْ مَسَدٍ﴾

(سورة المسد الآية : ٥-٦)

هُوَ عَمُّ النَّبِيِّ، أَمَا الْإِنْسَانُ حِينَما يَبْتَعِدُ عَنِ الْإِيمَانِ لَا قِيمَةُ النَّسْبِ أَبْدًا، قَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ:

"يَا فَاطِمَةُ بْنُتَ مُحَمَّدٍ، أَنْقُذِي نَفْسِكِي مِنَ النَّارِ، فَإِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكِ ضَرَّاً وَلَا نَفْعاً"

(أَخْرَجَهُ مُسْلِمُ فِي الصَّحِيفَةِ)



" وقد دخل عليه الصلاة والسلام مرة المسجد فرأى رجالاً يتحلقون حول رجل، فسأل سؤال العارف: من هذا؟ قالوا: نسابة، قال: وما نسابة؟ قالوا: يعرف أنساب العرب، فقال عليه الصلاة والسلام: هذا علم لا ينفع من تعطمه، ولا يضر من جهل به "

(ورد في الأثر)



من هنا من بعض أدعية النبي عليه الصلاة والسلام:
" اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ قَلْبٍ لَا يَخْشُعُ ، وَمِنْ دُعَاءٍ لَا يُسْمَعُ ، وَمِنْ نَفْسٍ لَا تَشْبَعُ ، وَمِنْ عِلْمٍ لَا يَنْفَعُ ، أَعُوذُ بِكَ مِنْ هُوَلَاءِ الْأَرْبَعِ "

(ورد في الأثر)

أيها الأخوة، تعليق لا بد منه، لأن لا بد أن تكون اصطفاتي في كل شيء إن أردت أن ترقى العمر قصير، والوقت محدود، والأيام

تنساق، وكلما مضى يوم اقتربنا من أجلنا، فلا بد من أن نصطفى، كيف؟ أنت في مكتبك تضع الأربعة جرمان ممتلئة بالكتب إلى السقف، وعندك بعد يومين امتحان مصيري، وكتاب هذه المادة أحد كتب المكتبة، هل يمكن أن تقرأ خطبة في هذين اليومين؟ لا بد من أن تقرأ الكتاب المقرر، لأن ما يطبع في العالم كل يوم من كتب بلغة واحدة لا يمكن أن تستطيع قراءتها في مئتي عام، ينبغي أن تصطفى كتاباً ينفعك في دينك ودنياك، وأن تصطفى صديقاً ينهض بك إلى الله حاله، ويدلك على الله مقاله، وأن تصطفى مكاناً تزداد فيه قرباً من الله عز وجل، أما الإنسان الذي يتحرك كيف ما شاء؟ يقرأ أي كتاب شاء؟ هذا الذي لا يصطفى يكون مغبوناً يوم القيمة فإذا: النسب تاج يتوج به المؤمن، أما إذا ابتعد الإنسان عن الإيمان فلا قيمة للنسب أبداً، وصدق القائل:

لا تقل: أصلي وفصلي أبداً إنما أصل الفتى ما قد حصل

العبادة التي كانت سائدة في قريش :

أيها الأخوة، ماذا كانت تعبد قريش قبل بعثة النبي عليه الصلاة والسلام؟ قال تعالى:



﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضْرُهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَاعَاتٌ عِنْدَ اللَّهِ﴾

(سورة يومن الآية : ١٨)

إحدى القبائل صنعت من تمر صنماً وعبدته، فلما جاءت أكلته، فقيل: أكلت ود ربها، أين عقولهم؟ قبيلة أخرى جاء أحد أفرادها إلى الصنم ليعبده فرأى أن ثعلباً قد بال على رأسه، فقال: أرب يبول الثعلبان برأسه لقد ضلت من بالت عليه الثعالب العرب كانت تعبد أصناماً من دون الله، وتزعم أنها تقربهم من الله عز وجل زلفا، عطوا عقولهم فخسروا آخرتهم .

هذه هي الجاهلية الثانية :

أخواننا الكرام، في بلاد آسيا تعبد البقرة من دون الله، فإذا دخلت إلى دكان فاكهة، وأكلت ما لذ وطاب من أغلى أنواع الفاكهة يكون صاحب المحل في الجنة، لأن الإله دخل إلى دكانه، وأكل من الفواكه، وقد يوضع روثها على الأثاث في غرف الضيوف في العيد، هذا من إنتاج إلهم، أين عقولهم؟



وهناك أناس في بلاد آسيا يعبدون الجرذان، وعندى مجلة فيها معبد، وكيف أن في هذا المعبد آلاف الجرذان يقدمون لهم أنفس الطعام، ويعبدونهم من دون الله؟ أين عقولهم؟ وفي هذه البلاد البعيدة جداً شرقاً، والتي تألقت في الصناعة حتى بلغت قمة النجاح الصناعي يعبدون ذكر الرجل، وقد حدثني أخ كريم زار معابدهم، وهناك

أناس يعبدون الحجر، وأناس يعبدون الشمس والقمر، وأناس يعبدون موج البحر، وهذا من ضعف عقل الإنسان، واشکروا الله عز وجل أننا عرفنا الإله الحقيقي الذي بيده كل شيء، قال تعالى:

﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضْرُهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَاعَاتٌ عِنْدَ اللَّهِ﴾

(سورة يومن الآية : ١٨)

أيها الأخوة، من أغرب ما قرأت قبل شهرين أو ثلاثة أن صحفية في بلد عربي مجاور فيها مقالة يزعم كاتبها أن آلة قريش كانت آلة ديمقراطية، لأن كل إله قبل بالطرف الآخر، أما إله محمد فكان إلهاً ديكاتوريًا أو قمعياً، لأنه رفض أن يكون معه إله آخر، أليست هذه جاهلية ثانية؟ حينما قال الله عز وجل:

﴿وَلَا تَبْرُجْ جَاهِلِيَّةَ الْأُولَى﴾

(سورة الأحزاب الآية : ٣٣)

ما معنى ذلك؟ أن هناك جاهلية ثانية .

الأكاذيب التي كانت قريش تفترى بها على الله وإصرارها على ذلك :

أيها الأخوة، أن بيئه قريش فيها تشريعات ما أنزل الله بها من سلطان، فقد قال الله عز وجل:

﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَسْنَنَكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ﴾

(سورة النحل الآية : ١١٦)

لذلك المعاصي والآثام رُتبت في القرآن
ترتيباً تصاعدياً، فذكر الله الفحشاء
والمنكر، والإثم والعدوان، والشرك
والكفر، وجعل على رأس هذه
المعاصي أكبر معصية على الإطلاق،
قال تعالى:

﴿وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾

(سورة البقرة الآية : ١٦٩)

هذا الذي يحرم من دون علم، ويحل



قريش أصرت على ضلالاتها

من دون علم، ويفترى على الله الكذب، الحلال والحرام من شأن الله وحده، فهناك عقائد سخيفة
ومضحكة كانوا يتداولونها فيما بينهم، ثم إنهم من حيث العقيدة كانوا يشركون بالله جل جلاله فلا
يوحدونه، وكانوا يلحدون في أسمائه وصفاته، وكانوا يسمون الملائكة تسمية الأنثى، ويدعون أنهم
بنات الله، ويدعون أن الجن شركاء الله، ويجدون القضاء والقدر، وقد قال الله على ألسنتهم:

﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا أَبَاوْنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَبَ الَّذِينَ
مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هُلْ عِنْدُكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرُجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَبَعُونَ إِلَى الظَّنِّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا
تَخْرُصُونَ﴾

(سورة الأنعام الآية : ١٤٨)

أنكروا القيامة، والبعث، والنشور، والدار الآخرة، والحساب، والجنة والنار، رغم إقرارهم بألوهية
الإله، ولا يتقيدون بشيء مما كان في الديانات السابقة، فقريش أصرت على هذه الضلالات، قال
تعالى:

﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ﴾

(سورة النحل الآية : ٣٨)

لذلك حينما تتحدد المسافة بين النبي ونبي يحتاج الناس إلى النبي يجدد للناس دينهم ومعرفتهم بالله عز وجل، قال تعالى:

﴿وَلَئِنْ قُلْتَ إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ لِيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾

(سورة هود الآية : ٧)

الإنسان أميل إلى الطبع من التكليف :

أيها الأخوة، حضرت مؤتمر الأديان في واشنطن، وقد شاهدت عبادات وأديان الأرض، كانت ١٨ ديناً، جميع هذه الأديان التي اخترعها الإنسان هي رقص وغناء وموسيقا



نحن في وقت التخلف تصبح عبادتنا أناشيد، ومنشدين فقط، وطربا، وولائم، واحتفالات، كلما ابتعدنا عن حقيقة الدين اتجهنا إلى ما هو ممتع بعيداً عن كل شيء مكلف، والتكليف ذو كلفة ، جميل جداً أن تتغنى بمديح رسول الله ، لكن ليس جميلاً أن تكتفي به ولا تفعل شيئاً بعد ذلك، دائماً هناك أشياء خفيفة على الإنسان، وأشياء تحتاج إلى جهد،

قال تعالى:

﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾

(سورة التوبه الآية : ١٩)

أحياناً يكون الإنسان قد آتاه الله عز وجل مالاً كثيراً، يبني مئذنة على حسابه، وقد أنشأ هذه المئذنة المحسن الكبير فلان، أنا لا أقل أبداً من إنفاق المال على المساجد، والمياتم، والمستشفيات، هذا عمل عظيم، ولكن حينما ترى أن إنفاق المال لا يأخذ منك إلا موافقة سريعة، أما الإسلام منهج كامل، افعل ولا تفعل، هناك واجبات وفرائض، وهناك محرامات ومنهيات ومكرورات، أما قد تختر من الدين ما يعجبك، فلذلك أنها الأخوة قضية الدين منهج كامل يؤخذ بأكمله، أو لم تقطف من ثماره شيئاً .

ما هي علاقة الأصل بالفرع ، وعلم نستنتج ؟

أيها الأخوة، لا بد من توضيح هذه الحقيقة، الإنكار القولي يعالج، أما الإنكار العملي فلا يعالج، البدع القلبية لا تصح، عندها ميزان، هناك خطأ في الميزان، أو هناك خطأ في الوزن، الخطأ في

الميزان لا يصح، لكن الخطأ في الوزن لا يتكرر، فأفضل ألف مرة أن تخطئ في الوزن من أن تخطئ بالميزان .

لذلك العقيدة هي الأصل، إن صحت عقيدة الإنسان صح عمله، وإن فسدت عقيدته فسد عمله، أكاد أقول: إن أخطر شيء في الدين العقيدة، إن صحت صح العمل، وإن كان هناك خطأ في الوزن لا في الميزان، الخطأ في العقيدة خطأ في الميزان، والخطأ السلوكي خطأ في الوزن، والخطأ في العقيدة لا يصح، بينما الخطأ في الوزن لا يتكرر، فلذلك



لو لم يكن للعقيدة أثر في السلوك، أقول لك: اعتقد ما شئت، أما لأنه ما من عقيدة إلا وتعكس انحرافاً في السلوك فإنه يجب أن تصح عقيدتك، يجب أن تصح تصوراتك .

أيها الأخوة، لو أن واحداً من المسلمين توهم أن شفاعة النبي لأهل الكبار من أمته هكذا على ظاهر الحديث من دون دقة في الفهم والشرح، ما الذي يدعوه إلى أن يستقيم؟ لا شيء، لأنه اعتقد خطأ أن النبي صلى الله عليه وسلم سيشفع له، من الخطأ الفادح، وأنت لست من أهل العلم أن تأخذ حديثاً، وأن تكتفي بفهمك له، وأن تستتبط منه ما طاب لك، ثم تبني عملك على هذا الفهم ، خطأ كبير، بل كبير جداً



الشفاعة موضوع عميق، موضوع يحتاج إلى تأصيل، في مجموعة أحاديث الفقيه يضع كل النصوص، والأيات، والأحاديث، وفعل النبي، وإقرار النبي، و فعل الصحابة، يجمع هذا كله، وأسباب النزول، وأسباب ورود الحديث على طاولة واحدة، ويستتبط حكماً شرعاً، أما أن يأتي إنسان في آخر الزمان، ويأخذ حديثاً،

ويفهمه على مزاجه، وبيني عليه حكماً، هذا ما أنزل الله به من سلطان، لا يمكن أن ينال شفاعة النبي إلا من كان موحداً ومخلصاً، إذا كنت موحداً مخلصاً أنت بينك وبين النجاة شرة واحدة .

إليكم هذا المثال: طالب أدى امتحانا في عشر مواد، أخذ في تسع مواد علامة النجاح وزيادة، ونقصه في إحدى المواد علامة واحدة، يشفع له النبي، أما في العشر مواد أصغار، ويعتمد على شفاعة النبي فهذا غباء وحمق ما بعده من غباء .

لو أن طالبا قال لآخر: لا تدرس، الأستاذ قلبه طيب، يشفق علينا يوم الامتحان، نبكي أمامه فيعطيينا الجواب، لا تدرس، هكذا يفهم بعض المسلمين الشفاعة، قال رسول الله : " يا فاطمة بنت محمد، يا عباس عم رسول الله أنقذنا نفسكما من النار، أنا لا أغني عنكما من الله شيئاً، لا يأتيك الناس بأعمالهم، وتأتوني بآنسابكم، من يبطئ به عمله لم يسرع به نسبه " (أخرجه البخاري في الصحيح)

هذا كلام النبي، أما كلام الله عز وجل:
 ﴿أَفَمَنْ حَقٌّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَإِنْ تُنْقِدُ مَنْ فِي النَّارِ﴾

(سورة الزمر الآية : ١٩)

مرة ثانية، لو لم يكن من علاقة بين أن تعتقد، وبين أن تتحرك أي شيء، لقلت أكـ: اعتقد ما شئت، لكن لأنـه ما من اعتقاد إلا وسوف ينعكس سلوكـاً خاطئـاً أو صوابـاً لا بدـ من تدقـيق فيما تعتقد،



حضور درس العلم هو استثمار للوقت

فـأـنـتـ بـحـاجـةـ إـلـىـ جـرـدـ لـمـعـقـدـاتـكـ، إـلـىـ مـسـحـ لـتـصـورـاتـكـ، يـجـبـ أـنـ تـعـرـضـهاـ عـلـىـ الـكـتـابـ وـالـسـنـةـ، فـمـاـ وـافـقـ الـكـتـابـ وـالـسـنـةـ فـعـلـىـ الـعـيـنـ وـالـرـأـسـ، وـمـاـ خـالـفـ الـكـتـابـ وـالـسـنـةـ يـنـبـغـيـ أـنـ تـخـلـىـ عـنـ هـذـهـ العـقـيـدـةـ .

أخواننا الكرام، حضور درس العلم هو استثمار للوقت، لأن الإمام علي رضي الله عنه يقول: " العلم خير من المال، لأن العلم يحرسك، وأنت تحرس المال، والمال تتقشه النفقة، والعلم يزهو على الإنفاق ".

إليكم هذين القصتين للعبرة :

سائق مركبة أشارت إليه امرأة أن يقف فوقـ، ركبت المركبة، سـأـلـهـاـ: إـلـىـ أـيـنـ؟ـ قـالـتـ لـهـ:ـ خـذـنيـ إـلـىـ أـيـ مـكـانـ تـشـاءـ،ـ فـرـآـهـاـ غـنـيـةـ،ـ فـلـمـ قـضـىـ حاجـتـهـ مـنـهـاـ،ـ أـعـطـهـ ظـرـفـينـ،ـ فـتـحـ الـأـوـلـ فـيـهـ مـبـلـغـ كـبـيرـ مـنـ الدـوـلـارـاتـ،ـ وـالـظـرـفـ الثـانـيـ فـيـهـ رـسـالـةـ كـتـبـتـ إـلـيـهـ الـكـلـمـاتـ التـالـيـةـ:ـ مـرـحـباـ بـكـ فـيـ نـادـيـ الإـيدـزـ،ـ ذـهـبـ لـيـصـرـفـ الدـوـلـارـاتـ،ـ فـإـذـاـ هـيـ مـزـوـرـةـ،ـ فـأـوـدـعـ فـيـ السـجـنـ،ـ وـأـصـيـبـ

بمرض الإيدز، لو أنه يحضر درس علم بمجرد أن تقول له: خذني إلى أي مكان تشاء، لأوقف المركبة وأنزلها، وقال: إني أخاف الله رب العالمين .



في أول خطبة خطبتها في جامع النابولي في عام ١٩٧٤ تقدم مني رجل مسن (كهل) ، وصار يبكي ، قلت له: خير إن شاء الله؟ قال: زوجتي تخونني ، قلت: مع من؟ قال: مع جاري ، قلت: كيف عرفت جارك أو كيف عرفها جارك؟ قال لي: مرة زارني الجار ، فقلت: لئلا تبقى وحدها مستوحشة تعالى أم فلان مثل أخوك ،

بدأت هذه العلاقة ، قلت له: لو أنت حضرت مجلس علم لا تفعل هذا .

أخواننا الكرام ، أرجو أن تدققوا في هذه القاعدة ، ما من مصيبة على وجه الأرض من آدم إلى يوم القيمة إلا بسبب خروج عن منهج الله ، وما من خروج عن منهج الله إلا بسبب الجهل ، والجهل أدى أداء الإنسان ، والجهل يفعل في نفسه ما لا يستطيع عدوه أن يفعله به ، فأنت حينما تحضر درس علم تضمن سلامتك ، وسعادتك في الدنيا والآخرة ، لأنك تتعلم في هذا الدرس تعليمات الصانع ، وما من جهة أجر من أن تطاع كالصانع ، لأنه الخير ، قال تعالى:

﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَيْرٍ﴾

(سورة فاطر الآية : ١٤)

المنكرات التي كانت تعيشها قريش قبلبعثة النبي وبين الإنسان الذي يعيشها اليوم:

أيها الأخوة ، أخلاق قريش قبل بعثة النبي وأعرافهم وعاداتهم كثيرة ، فكانوا يشربون الخمر بلا قيد ولا شرط ، ويلعبون الميسر ، ويتزوجون بغير عدد ، بباب الزواج مفتوح ، ويقتل بعضهم الأولاد بسبب الفقر ، ويؤدون البنات خوف العار والفقر ، قال تعالى :

﴿وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلتُ مَنْ بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ﴾

(سورة التكوير الآية : ٩-٨)

لو انقلانا إلى هذا العصر لم يئدها ، لكنه جعلها تخرج من البيت كما تريد ، وبأي زي ت يريد ، وتظهر كل مفاتتها للناس ، ولا تعباً لا بقيد أخلاقي ولا ديني ولا شرعى ، ففسدت وأفسدت ، وضلت وأضللت ، هذه الفتاة يوم القيمة ، تقول: يا رب لا أدخل النار حتى أدخل أبي قبلي ، ما معنى قوله تعالى :

﴿وَالْفِتْنَةُ أَشَدُ مِنَ الْقَتْلِ﴾

(سورة البقرة الآية : ١٩١)

هذه التي وئدت في الجاهلية إلى الجنة، لأنها وئدت قبل التكليف، أما التي أطلقناها فلا تعنتي لا بأخلاقها، ولا بإيمانها، ولا بحجابها، ولا بعلمها، ولا بتفاوتها، أطلقناها تفعل وتؤذى المجتمع كما تريده، هذا عمل يحاسب عليه الأب، بل إنني أعتقد أن الفتنة كما قال الله عز وجل في أن يطلق الفتاة العنان أشد من القتل .

مرة سئلت في درس: الرجال لهم عبادات خاصة، من هذه العبادات حضور الجمعة والجماعات، ومن هذه العبادات الجهاد في سبيل الله، النساء هل لهن عبادات خاصة؟ طبعاً النبي عليه الصلاة والسلام، يقول:

" انصرفي أيتها المرأة، وأعلمي من وراءك من النساء أن حسن تبعل إحداكن لزوجها، وطلبها مرضاته، واتباعها موافقته يعدل ذلك كله "

(ورد في الأثر)

شيء جميل، رعاية الزوج والأولاد نوع من أنواع الجهاد في سبيل الله، لكن شيء رائع جداً أن أنقل إليكم أن هناك عبادة تتفرد بها المرأة من دون الرجل، أنا أسميها عبادة إعاف الشباب، الرجل في الصيف قد يلبس ثياباً خفيفة، هذه ميزة، لكن الفتاة المؤمنة ترتدي ثياباً سابعة وسميكه لا تصف لا لون بشرتها ولا حجم

أعضائها، لعل الثياب التي يجب أن تكون سابعة وسبالة عباء عليها، ولكن هذه عبادة، فكل امرأة أظهرت مفاتتها، وأفسدت شاباً فهذا الفساد الذي يصيب الشاب في صحيحتها يوم القيمة .

لذلك في الجاهلية زواج بغير عدد، يقتل بعضهم أولاده بسبب الفقر، قال تعالى:

﴿وَلَا تَقْتُلُوا أُولَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ﴾

(سورة الأنعام الآية : ١٥١)

أي من فقر واقع، قال تعالى:

﴿وَلَا تَقْتُلُوا أُولَادَكُمْ خَشْيَةً إِمْلَاقٍ﴾

(سورة الإسراء الآية : ٣١)

من فقر متوقع، فقد منع الإنسان من أن يقتل ابنته لفقر واقع، أو لفقر متوقع، لو انتقدنا إلى الآن أنت حينما ترضى لابنك بعمل دخله كبير، ولكن يضيع فيه دينه، أليس هذا نوع من القتل؟ كم من



إنسان لم يعتن بآيمان ابنه، ولا بأخلاقه؟ ففسد، وأنتج دخلاً كبيراً، إذاً: هذا ينبغي أن يكون في الحسبان .

وكانوا يتبرون الحروب لاتفاق الأسباب، يمد أحدهم رجله، ويقول: من كان أشرف مني فليضر بها، يضر بها رجل آخر، وتنشب حروب تستمر عشرات السنين، تدمر كل شيء، هذه أيضاً جاهلية، وقد قال الله عز وجل:

﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِمَا ضَرَبَ لِرَحْمَنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًا وَهُوَ كَظِيمٌ﴾

(سورة الزخرف الآية : ١٧)

انظر إلى تعامل النبي للنساء :

أما النبي عليه الصلاة والسلام حينما جاءته فاطمة ضمها وشمها، وقال:
"ريحانة أضمها وعلى الله رزقها"

(ورد في الأثر)

أعرف صديق عنده سبع بنات، وكلما حملت زوجته، وأشرفت على الوضع هيأ هدية كبيرة، لعلها تأتي بالأنثى، ف تكون هذه الهدية تطمئناً لها أنها في أعلى مقام عنده، هذا المؤمن، قال تعالى:

﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالأنْثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًا وَهُوَ كَظِيمٌ * يَتَوَارَى مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيْمَسِكُهُ عَلَى هُونٍ أَمْ يَدْسُهُ فِي التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾

(سورة النحل الآية : ٥٩-٥٨)



ماذا قال عليه الصلاة والسلام:
"أكرموا النساء، فوالله ما أكرمنهن إلا
كريم، ولا أهانهن إلا لثيم، يغلبن كل
كريم ويغلبون لثيم، وأنا أحب أن
أكون كريماً مغلوباً، من أن أكون لثيماً
غالباً"

(ورد في الأثر)

قال عليه الصلاة والسلام عن النساء:

"فإنهن المؤنسات الغاليات "

(رواه أحمد في مسنده والطبراني في الكبير عن عقبة بن عامر)

والنبي عليه الصلاة والسلام جعل الخيرية الكبرى، وأنت في البيت، قال:

"خَيْرُكُمْ خَيْرٌ لِأَهْلِهِ، وَأَنَا خَيْرُكُمْ لِأَهْلِي"

(أخرجه الترمذى عن عائشة في سننه)

يعنى أن الإنسان خارج البيت، نوع من الذكاء يتجمال، يبتسم، يلتطف، يعتذر، يحسن هندامه، أما في البيت فلا رقابة عليه، فبطولتك وأنت في البيت، قال عليه الصلاة والسلام:

"خَيْرُكُمْ خَيْرٌ لِأَهْلِهِ، وَأَنَا خَيْرُكُمْ لِأَهْلِي"

(أخرجه الترمذى عن عائشة في سننه)

تحريم القرآن للخمر :

يقول الله عز وجل:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَبِوْهُ
لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾

(سورة المائدة الآية : ٩٠)

ويتوهم بعض الناس ممن شردوا عن الله عز وجل أن كلمة فاجتبوه لا تعنى التحرير المطلق، بل هي في الحقيقة أشد أنواع التحرير، لأنك إذا مُنعت من شيء تمنع من ممارسته، أما اجتبوه، قال عليه الصلاة والسلام:

"لَعْنَ اللَّهِ الْخَمْرِ، وَشَارِبِهِ وَسَاقِيهِ، وَبَائِعِهِ وَمُبَتَّعِهِ، وَعَاصِرِهِ وَمُعْتَصِرِهِ، وَحَامِلِهِ
وَالْمَحْمُولَةِ إِلَيْهِ، وَأَكْلِ ثَمَنِهِ"

(أخرجه أبو داود في سننه والحاكم في المستدرك عن ابن عمر)

فيجب أن يكون بينك وبين الخمر هامش أمان كبير، فالاجتناب هو من أشد أنواع التحرير .

الأنكحة التي كانت منتشرة في جاهلية العرب :

وقد سادت في البيئة التي عاش بها النبي صلى الله عليه وسلم أنواع من الأنكحة التي لا تختلف عن الدعارة إطلاقاً، من هذه الأنكحة أنكحة الاستبضاع، أن يقول الرجل لزوجته: اذهبي إلى فلان فاستبضعي منه، أي احمل منه، فلان قد يكون جميل الصورة، أو قويا، أو ذكيا، هذا كان نكاح الاستبضاع .

أما نكاح الرهط، يعني عشرة رجال يتزوجون امرأة واحدة، وقد حدثتكم فيما ذكر أنه من أحدث الأبحاث العلمية أن الإنسان له هوية، قرحة عينه هوية، ورائحة جلده هوية، ليس



هناك على وجه الأرض واحد من ستة آلاف مليون يشبهك في قزحية العين، ولا في نبرة الصوت، ولا في رائحة الجلد، ولا في بصمة الإصبع، ومن مدة قريبة أضيفت إلى مجموع هذه الهويات هوية جديدة نطفتها هوية، لكل نطفة تركيب خاص لا تشبه أية نطفة أخرى، وقد اكتشف أن عند المرأة جهازاً حاسوباً تبرمج فيه هذه النطفة، وما دامت هذه النطفة تأتي بشكل أو بآخر لا تتغير فالوضع سليم جداً، أما إذا دخلت نطفة على نطفة فهناك احتمال بأن تصاب المرأة بسرطان الرحم.

أما أن تأتي نطفة جديدة دون أن تصاب المرأة بشيء فهذا يعني أن تقطع النطفة الأولى ثلاثة أشهر، حتى تمحى برمجتها من حاسوب المرأة، وعندها يمكن أن تستقبل المرأة نطفة جديدة، وهذه هي العدة التي شرعت في القرآن الكريم.

أما إذا كان هناك شدة نفسية تحتاج إلى أكثر من أربعة أشهر، هذه عدة المتوفى عنها زوجها، هذا كلام سمعته في مؤتمر إسلامي في القاهرة بشرح عميق جداً، ومدلل بالتجارب والأبحاث الدقيقة.

وهناك نكاح ذوات الرأي، يعني بيوت الدعارة، بيت عليه رأية أن هذه المرأة تقتات بجسمها، والقول الجاهلي تجوع الحرة ولا تأكل بثديها، عقائد فاسدة، سلوك فاسد، تحريم مزاجي ، أنكحة فاسدة، خمر، ميسير، ظلم، قهر، عدوان، وأد بنات، قتل أولاد، هذه الجاهلية التي جاء فيها النبي عليه الصلاة والسلام .

خاتمة الدرس :

أرجو الله سبحانه وتعالى أن نتابع هذه الدروس في الأيام القادمة على أن عنوان الدرس فقه السيرة، وكل شيء ندرجه في هذا الدرس يجب أن نستتبع منه شيء كقاعدة في حياتنا، وإذا كان بالإمكان أن نوازن بين الماضي والحاضر ينبغي أن تكون هذه الموازنة لصالح فهم هذا الدرس، وزانت لكم بين وأد البنت وبين نقلتها الآن، أيهما أخطر؟ تقليتها، لأن التي وئدت إلى الجنة، أما هذه فلا تدخل النار حتى تدخل أباها قبلها .

والحمد لله رب العالمين